نهر النيل

كما ذكره العلامة ابن خلدون في مقدمته

بقلم رشوان أحمد صادق

جاء ذكر النيل في كثير من المؤلفات العربية التي وضعها جغرافيو العرب من أمثال الادريسي وياقوت الحموي والاصطخري وابن سعيد الجهاني وغيرهم كثير . على أن ابن خلدون وصف هذا النهر وصفاً بديعاً في مقدمته المشهورة

وقبل أن نتحدث عن مقال ابن خلدون عن نهر النيل يحسن بنا أن نذكر الحقائق الآتية :

أولا : اطلع ابن خلدون على أبحاث من سبقه إلى هذا الموضوع وحاول أن يوفق بينها وبين ما سمعه من الأحاديث المختلفة عن نهر النيل

ثانياً : لم يذهب ابن خلدون إلى أعالي النيل ولكنه ربما زار بعض أجزاء النهر السفلى مثل الأراضي المصرية

ثالثاً : إن ابن خلدون قد وصف بعض أجزاء نهر النيل بدقة جعلت الكثير من العلماء يهتم برسالة هذا الرجل الفيلسوف

رابعاً : إن العهد الذي كتب فيه ابن خلدون كان عهد اجتهاد من حيث البحث عن منابع النيل ، إذ كانت مسألة النيل من الأمور الغامضة ، ولم تتح الفرص لفك لغزه أو الحصول على معلومات حقيقية عنه مبنية على أبحاث دقيقة إلا بعد أن وطد محمد علي الأمن في أعالي النيل ، وبذلك سهلت مهمة من قام بهذا العمل

والآن نذكر أقوال ابن خلدون عن نهر النيل ثم نعقب عليها

قال : « فأما النيل فمبدؤه من جبل عظيم وراء خط الاستواء بست عشرة درجة على سمت الجزء الرابع من الأقليم الأول ويسمى جبل القمر ولا يعلم في الأرض جبل أعلى منه . تخرج منه عيون كثيرة فيصب بعضها في بحيرة هناك وبعضها في أخرى ، ثم تخرج أنهار من البحيرتين فتصب كلها في بحيرة واحدة عند خط الاستواء على عشر مراحل من الجبل ، ويخرج من هذه البحيرة نهران يذهب أحدهما إلى ناحية الشمال على سمته ويمر ببلاد النوبة ثم بلاد مصر ، فاذا جاوزها تشعب في شعب متقاربة يسمى كل واحد منها خليجاً وتصب كلها في البحر الرومي عند الاسكندرية ، ويسمى نيل مصر وعليه الصعيد من شرقيه والواحات من غربيه . ويذهب الآخر منعطفاً إلى المغرب ثم يمر على سمته إلى أن يصب في البحر المحيط وهو نهر السودان وأمم كلهم على ضفتيه »

من ذلك يتبين إلى أي حد كانت معلومات ابن خلدون عن هذا النهر . أما عن أعالي النهر فمعلوماته قاصرة على السماع وعلى ما وصل إلى علمه من كتب من سبقه إلى ذلك الموضوع . وعلى الأخص كتاب بطليموس الذي ذكر ذلك بوضوح ونقل عنه الادريسي وغيره . ولكن في كلام ابن خلدون مسألة مهمة ألا وهي ذلك النهر الذي يتجه غرباً ويصب في البحر المحيط

ما هو ذلك النهر الغربي ؟

أكان ابن خلدون متأثراً بالآراء القديمة من أمثال رأي هيرودوت الذي يقول بأن النيل يتجه غرباً إلى المحيط ؟ أم كانت عنده معلومات عن نهر الكنغو وظن أنه يتصل بالنيل كما كانت هذه الفكرة سائدة إلى زمن ليس ببعيد ؟ أم كان يعرف نهر النيجر وظن أنه فرع من النيل لقرب منابع بعض نهيراته من منابع بعض نهيرات حوض تشاد القريبة من منابع بعض نهيرات النيل ؟

ولكي نوضح هذه المسألة نقول : إن ابن خلدون ربما كان يقصد أحد هذه الآراء الثلاثة الآتية :

١ — يقول ابن خلدون إن هناك نهيرات تنبع من جبل القمر ثم تصب في بحيرتين ، ثم تخرج أنهار من البحيرتين فتصب كلها في بحيرة واحدة عند خط الاستواء ، ويخرج من هذه البحيرة نهران يتجه أحدهما نحو الشمال والآخر نحو الغرب ويصب في المحيط

لعله كان يقصد بحيرة فكتوريا وبحيرة ادورد ، وأن البحيرة

الثالثة هى بحيرة البرت ، والنهر المتجه شمالاً هو بحر الجبل والمتجه غرباً هو الكنغو

والقاعدة فى هذا الفرض أن المنطقة بين النيل والكنغو غير محدودة تماماً ، كذلك ليست شديدة الارتفاع ، وفى زمن الأمطار الشديدة قد تكون هذه المنطقة عبارة عن شبكة من المجارى المائية التى يصبح من المتعذر تتبعها خصوصاً وأن تلك الجهات كانت غير معروفة تماماً ، وأن المعلومات عنها كانت منقولة عن التجار العرب والزنوج

فان كان ابن خلدون يقصد ذلك — وهو الأرجح — فذلك دليل على ذكاء ذلك الرجل الفيلسوف والعالم المحقق

ولقد ظلت فكرة اتصال النيل بالكنغو زمناً طويلاً فى عالم الوجود قبل أن يكشف تماماً عن نهر الكنغو

٢ — أما عن الرأى الثانى فنقول إن ابن خلدون ربما قصد بالبحيرة الثالثة منخفض بحر الغزال (بحيرة نو واقليم السدود ومنخفض بحر الغزال) . فالواقع اننا عندما نتتبع هذه المنطقة على الخريطة قد لا نتبين تماماً مقدار عظمها ، ولكن إذا ما اطلعنا على مذكرات بعض التجار الذين قطعوا هذه المسافات من أمثال الزبير باشا نتبين تماماً أن هذه المنطقة تظهر لأول وهلة كأنها مستنقع عظيم السعة . فلقد ذكر الزبير باشا فى مذكراته أنه ضل الطريق وسط هذا المستنقع اثنى عشر يوماً حتى كاد يشرف على الهلاك

فربما كان ابن خلدون يقصد بالبحيرة الثالثة هذا المستنقع العظيم . وان النهر الذى يتجه غرباً هو بحر العرب وروافده . وربما وصلته أخبار عن النيجر وحوض تشاد فظن أن بحر العرب يتصل ببحيرة تشاد وهذه الأخيرة تتصل بالنيجر إلى (البحر) المحيط

ولقد كان يظن أن النيل يتصل بنهيرات بحيرة تشاد وهذه تتصل بأعالى النيجر ، وبقيت تلك الفكرة سائدة إلى أن ذهبت البعثة الفرنسية وطافت حول بحيرة تشاد وأثبتت أن حوض تشاد منفصل عن النيل وعن النيجر تماماً

وربما كانت تلك الفكرة بعيدة عن ذهن ابن خلدون ، ومع ذلك لا مانع من ذكرها خصوصاً وان فكرة اتجاه النيل غرباً كانت سائدة فى قديم الأزمنة

٣ — أما عن الرأى الثالث فربما قصد ابن خلدون بالبحيرة الأولى ، بحيرة رودلف ، وظن أن نهر أومو الذى يتصل بها متصل بنهر أو كوبو أحد أفرع السوباط ، وأن البحيرة الثانية هى فكتوريا ، والبحيرة الثالثة هى نو (ومنخفض بحر الغزال واقليم السدود) ، وأن النهر الغربى هو بحر العرب ويتصل بحوض تشاد ، ثم حوض تشاد يتصل بحوض النيجر ، ثم ينصرف الأخير الى المحيط كما سبق أن بينت ذلك فى الرأى السابق

ومما جعلنا نحتمل وجود هذا الرأى على الرغم من ضعفه هو قرب بحيرة رودلف من ساحل أفريقية الشرقى ، إذ أنه معروف أن التجارة كانت تنقل من أعالى النيل الى ساحل أفريقية الشرقى حيث يمكن تبادلها مع سكان الساحل الاسيوى المقابل لساحل أفريقية الشرقى ، وكانت الأخبار تنقل مع التجار العرب أو الزنوج ، ومن ضمن هذه الأخبار المعلومات المختلفة عن منابع النيل واقليم البحيرات

ولما كانت بحيرة رودلف قريبة من ساحل أفريقية الشرقى فلا يبعد على الظن أن تكون ذكرت كمنبع للنيل

ولعل تلك الفروض كانت راجعة الى عدم معرفة هذه الجهات بالدقة أيام أن كتب ابن خلدون رسالته ، وان كل ما ذكر عنها كان عن طريق النقل والسماع الذى لا يخلو من المبالغة والخطأ ، زد على ذلك قلة المعدات العلمية وآلات الضبط والمقاييس المختلفة بعكس ما نحن عليه الآن من تقدم

والآن ندخل فى التفاصيل التى ذكرها الفيلسوف ابن خلدون عن بقية نهر النيل

قال يصف البحيرة الثالثة : « فى أسفلها جبل معترض يشق البحيرة من ناحية الشمال ويقسم ماءها الى قسمين فيمر الغربى منه الى بلاد السودان مغرباً حتى يصب فى البحر المحيط »

وفى ذلك اشارة الى خط تقسيم المياه بين النيل والكنغو ، ويرجح ذلك إذا ما علمنا أن شاطئ بحيرة البرت من الجهة الغربية تحف به الجبال ، ثم خلف هذه المرتفعات أى فى الجهة الغربية منها توجد المجارى المائية التى تمد نهيرات الكنغو ، فلا يبعد على الظن أن يكون ابن خلدون قد اعتبر منابع الكنغو

وراء هذه الجبال الناحية لشاطئ بحيرة البرت الغربى جزءاً متمما لهذه البحيرة خصوصاً وهذه المنطقة تحتوى على عدد عظيم من النهيرات ، فهى عبارة عن شبكة مائية يصعب تحديدها خصوصاً فى أوقات الأمطار الشديدة والفيضانات حيث تظهر كمتسع عظيم من المياه

وربما قصد ابن خلدون بهذه المرتفعات مرتفعات دارفور التى تفصل مياه وادى الكوه ووادى جندى المتصلين ببحر العرب عن وادى بحر السلامات المتصل بنهر شادى المتصل ببحيرة تشاد

وربما قصد بهذه المرتفعات مرتفعات بندا التى تفصل بين مياه بحر الغزال من جهة ونهر شادى المتصل ببحيرة تشاد من جهة أخرى . إذ أن نهرى الجبل والغزال يكونان حوضاً منخفضاً فى الوسط وحافاته مرتفعة ، وما ارتفاع الجهات التى تفصل حوض الغزال عن حوض تشاد إلا لهبوط الانخفاضات المجاورة التى فيها بحر الغزال وحوض تشاد

أما عن بقية نهر النيل فقد قال ابن خلدون : « ويخرج الشرقى منه ذاهباً إلى الشمال على بلاد الحبشة والنوبة وفيما بينهما . وينقسم فى أعلى أرض مصر فيصب ثلاثة من جداوله فى البحر الرومى عند الأسكندرية ورشيد ودمياط ، ويصب واحد فى بحيرة ملحة قبل أن يتصل بالبحر فى وسط هذا الأقليم »

وفى ذلك اشارة إلى فروع النيل وتغيرها فى عهد العرب وما بعده عما كانت عليه فى عهد البطالسة ، فقد زالت المصبات الشرقية كلها تقريباً

ويقول أيضاً « وعلى هذا النيل بلاد النوبة والحبشة وبعض بلاد الواحات إلى أسوان ، وحاضرة بلاد النوبة مدينة دنقله وهى فى غربى هذا النيل ، وبعدها علوه وبلاق ، وبعدها جبل الجنادل على ست مراحل من بلاق فى الشمال ، وهو جبل عال من جهة مصر ومنخفض من جهة النوبة فينفذ فيه النيل ويصب فى سهوى بعيد صباً سهولاً فلا يمكن أن تسلكه المراكب بل يحول الوسق من مراكب السودان فيحمل على الظهر إلى بلد أسوان قاعدة الصعيد ، وكذا وسق مراكب الصعيد إلى فوق الجنادل ، وبين الجنادل وأسوان اثنتا عشرة مرحلة ، والواحات فى غربها عدوة النيل وهى الآن خراب وبها آثار العمارة القديمة »

وفى ذلك اشارة صريحة إلى الشلالات التى تعترض النيل قبيل أسوان والتى تكون عثابة عقبة ، إذ نجد الانحدار شديداً . ويظهر أن المنطقة التى يصفها ابن خلدون هى المنطقة المسماة الآن شلال حلفا ، وتبدأ بعد سراسن ، ومن بعدها بقليل نجد شلالات جيمى وابكه وطولها معاً أكثر من ١٦ كم . م ، وينحدر عندها النيل انحداراً شديداً . وهذه الجنادل هى التى يطلق عليها عادة شلال حلفا وهى كغيرها من الشلالات السابق ذكرها يرجع تكوينها إلى اعتراض الصخور البلورية الشديدة الصلابة فى مجرى النهر وتتكون منها الجزر

وأما عن لفظ (واحات) فربما قصد بذلك بقايا المدن الأثرية التى قامت على أنقاضها المدن الحديثة ، أو ربما أطلق هذا اللفظ على البلاد الموجودة فى هذه المنطقة الجدبة والتى تعتمد على الآبار لبعدها عن النيل

أما عن قوله إن الحبشة على النيل فربما قصد بذلك الفرع الذى يأتى من بلاد الحبشة وهو الأرجح ، إذ يقول : « بلاد الحبشة على واد يأتى من وراء خط الاستواء ذاهباً إلى أرض النوبة فيصب هناك فى النيل الهابط إلى مصر » . ويقول « وقد وهم فيه كثير من الناس وزعموا أنه من نيل القمر ، وبطليموس ذكره فى كتاب الجغرافيا وذكر أنه ليس من هذا النيل »

وهذه إشارة إلى أنه لم يكن يعرف هضبة الحبشة ولا منابع النيل الأزرق . على أنه يتفق مع بطليموس فى أنه ينبع من جهات غير منابع النيل فى جبل القمر . وهذه المسألة مدهشة ، إذ أن النيل الأزرق كان معروفاً منذ أيام اراتستين ، وأن هضبة الحبشة كانت مجاورة لبلاد اليمن وذات حضارة ، فكيف لم يعلم شيئاً عن منابع النيل الأزرق بينما رسم كل من بطليموس والادريسى بحيرة تسانا ؟

ثم ذكر المحيط الهندى والبحر الأحمر والخليج الفارسى ، وقال عنهما : البحران الهابطان ، ثم ذكر بوغاز باب المندب والمنطقة المعروفة الآن باسم الارتريا ، ثم تكلم عن التجارة بين اليمن والسويس ، وذكر سواكن ، وتكلم عن الواحات الداخلة وعين مكانها ، وذكر النيل فى المنطقة بين القطم (وجبل الواحات)